السينما المغربية وتطلعات الشباب

د. عزيز زروقي

باحث في التاريخ والمسرح والسينما والدراما التلفزيونية

المغرب

ملخص:

تلعب السينما دورا فعالا ومؤثرا في توجيه المجتمعات بصورة عامة، والشباب بصوره خاصة، والتأثير عليهم في مجمل قضاياهم المختلفة، في العقائد والأخلاق والسلوك والسياسة والاقتصاد و...، احتلت الأفلام ومضامينها حيزا كبيرا في حياتهم اليومية، لدرجة أن الشباب لا يستطيعوا الاستغناء عن مختلف الأفلام التي تعرضها القنوات الفضائية المغربية أو دور السينما الوطنية. صارت السينما جزءا من تركيبة حياة ونظام الشباب، فعشرات بل مئات الأفلام توجه وتدير رؤوس هذه الفئة العمرية، مع أن كثيرا من هذه الأفلام لا تخدم قضاياهم على الوجه المطلوب، بل أنها تتجاهلها، وبعضها يتعمد الإضرار والتأثير السلبي والإيجابي في إطار محاولة للخروج برؤية مستقبلية إعلامية يستفيدون من خلالها بمزايا وفعالية الأفلام السينمائية، وجذبها لهم، واستغلالها لصالح تنميتهم وتطويرهم وإشراكهم بكافة طموحاتهم وتوجهاتهم.

مدخل:

منذ تجربة (الأخوين لوميير) Les Frères Lumière الأولى أواسط تسعينيات القرن التاسع عشر في مقهى باريسي، هما : (أوغست لوميير) Auguste، Lumière، و(لويس لوميير) Louis Lumière في أول عرض عام مدفوع في 28 ديسمبر 1895م في باريس، في جمعية "تنمية الصناعة الوطنية"، أمام جمهور من 200 شخص، أحدهم؛ كان (لويون غومونت) Gaumont Film Company، ومدير شركة (كوندور جينيرال دي لي فوتغرافي) Condor Général de l'École Photographie. كان التركيز الرئيسي للمؤتمر من قبل (لويس لوميير) Louis Lumière يتعلق بالتطورات الأخيرة في صناعة التصوير الفوتوغرافي، ولا سيما البحث في تعدد الألوان (التصوير الفوتوغرافي الملون)، دخلت السينما التاريخ تحت العرض التقديمي التاريخي من الأفلام العشرة التالية ؛ مثل: La Sortie de l'usine Lumière à Lyon، "الخروج من مصنع لوميير" 46 ثانية و Le Jardinier l'Arroseur Arrosé "البستاني" 49 ثانية، و Le Débarquement du congrès de photograpie à Lyon "إنزال مؤتمر المصورين في ليون" 48 ثانية، و La Voltige "راكبو الخيل" 46 ثانية، و La Pêche aux poissons rouges "صيد السمك الذهبي" 42 ثانية، و Les Forgerons "حدادون" 49 ثانية ....

ثم منذ تجارب الفرنسي الآخر (ماري جورج جان ميلييس) Marie-Georges-Jean Méliès المبتكر للعديد من الأساليب التقنية والسردية في بدايات السينما، حيث كان شخصا مبتكرا في استخدام المؤثرات الخاصة. اكتشف بالصدفة خدعة التوقف أو الاستبدال عام 1896م، وكان أحد أوائل السينمائيين الذين استخدموا تقنيات الكشف المتعدد، تصوير انقضاء الزمن. ومن بعده عشرات ثم مئات السينمائيين الذين مزجوا السينما بالأدب والتاريخ والفنون كافة، ثم بالموسيقى وعوالم الجريمة والمسرح، وحملوا أسماء باتت اليوم أسطورية، مثل: (دافيد غريفيت) David Wark Griffith و(إدوين إس بورتر) Edwin Stanton Porter و(سيرغاي إيزنشتاين) Sergueï

Mikhaïlovitch Eisenstein و(فيكتور سجوستروم) Victor Sjöström ومن ثم (تشارلي شابلن) Charlie Chaplin وغيره..

تمكنت السينما من أن تكون حراكا إبداعيا موازيا للآداب والفنون، بل أكثر من هذا، بديلا عنها ومكملا لها في أحيان كثيرة. ونعرف أن تلك الهجمة التي انطلقت بها الصور المتحركة بشكل خجول بدائية التقنية متعثرة وغير واثقة من مستقبلها، وسط عداء أبداه تجاهها كثر من المبدعين والمثقفين وحتى الفلاسفة، سرعان ما صارت جزءا أساسيا من ثقافة شعوب بأسرها، وصانعة لذهنيات اجتماعية ولا سيما في مدن رئيسة من العالم.

بدأت السينما بتصوير مشاهد واقعية من الحياة، فيما يشبه المتابعة البسيطة التي لا تحمل تدخلا من المخرج الذي سيتأخر هو الآخر قبل أن يرى دوره يعترف به كمبدع أساسي للفيلم ولكنها سرعان ما راحت تصور المسرحيات ومشاهد الرقص والروايات التي تمزج بين الرواية والتاريخ، ثم تصور التاريخ نفسه في مناسبات استغلها السياسيون، ولا سيما الشموليون من بينهم، من الذين لم يفتهم أن يدركوا بسرعة، القوة التأثيرية الكبرى لهذا الفن الجديد على الجماهير.

صنعت سينما الشباب داخل الأندية السينمائية التي زودت الحقل السينمائي المغربي بالعديد من الأطر والفاعلين في الحقل السينمائي المغربي، وانتعشت داخل الجمعيات التي كانت تهدف نشر ثقافة الصورة، أو تستغل الوسائط السمعية البصرية للترويج لأهدافها، فحققت ذاتها في المؤسسات التعليمية التي كانت تحتضن أندية سينمائية، فضلا عن المبادرات الفردية التي اعتمدت طرائق واستراتيجيات متنوعة في البحث عن موارد مادية وعينية لإنتاج أفلام قصيرة روائية كانت أم وثائقية، وهو ما جعلها تنفتح على ما يمكن أن نسميه الإنتاج الترقيعي الذاتي، أو المستقل، أو البديل إلى حين.

يمكن اعتماد السينما كمنطلق لبناء تصورات مغايرة، فهي الوسيط الذي يتيح التعبير عن وضعيات وأحوال الكائن، وهي الفضاء الذي يجمع الشباب، ويرتبط في الذاكرة بالشباب، ويمنح الفرصة للتحليق بالخيال، والتعالي عن الواقع. وهو الأمر الذي يسعفنا في تطوير البحث في هوية الشباب من خلال المتن الفيلمي، وفهم تطورها وتأثرها بما حولها، ومدى انعكاسها على السلوك الذاتي للشاب، فضلا عن تطوير حقيقته الداخلية، وتفسير ردود أفعاله الإيجابية والسلبية داخل المجتمع الذي يعيش فيه.

فهل باستطاعتنا استعادة حكايات المخرج السوفياتي (سيرجي إيزنشتاين) Sergueï Mikhaïlovitch الذي حقق عبر أفلام مؤدلجة مثل: (المدرعة بوتمكين) Battleship Potemkin و(إضراب) La grève، و(أكتوبر) Octobre روائع سينمائية جمعت بين الفن والدعاية السياسية؟ أو حكاية السينمائية النازية (ليني ريفنشهال) Helene Riefenstahl صديقة (أدولف هتلر) Adolf Hitler ومخرجته الأثيرة التي أبدعت للدعاية النازية تحفا لا تنسى مثل: (أوليمبيا القديمة) Archaia Olympia ؟ ما هوية السينما المغربية؟ هل اشتغلت على الشباب؟ كيف يتم تصوير الشاب للشباب داخل الأفلام؟ هل تساعدنا السينما فهم رؤى وتوجهات الشباب الطموح الحالم؟ هل السينما التي يشارك فيها الشباب تصالحه مع نفسه ومع غيره، ومع الذات ومع العالم؟ هل استطاعت السينما المغربية تجاوز الواقع لبلورة مفهوم واضح للشباب؟

المحور الأول: السينما والشباب

لم تعد السينما بحاجة إلى بطاقة تعريف. بل صارت جزءا أساسيا من الحياة اليومية لمئات ملايين البشر. وانطلاقا من هنا، وبالتراكم، كان من المنطقي أن تخلق السينما أول حالة عولمة معممة على نطاق واسع في التاريخ. صار القابع في عتمة صالته في (جوهانسبورغ) Johannesburg ، أو الدار البيضاء أو (أثينا) Athènes أو (شانغهاي) Shanghai ... يتعرف عن مدن العالم الأخرى، وحياة أهلها وتفكيرهم وبؤسهم وأفراحهم وأحلامهم، ما قد لا يعرفه من يعيش حتى في داخل تلك المدن. حكايات سكان (برلين) Berlin أو

(ستوكهولم) Stockholm أو (إسطنبول) Istanbul باتت في متناول أهل (باريس) Paris و(روما) Roma و(جاكارتا) Jakarta. حدث كل هذا، وعرفت السينما كيف تحول القرن العشرين بأسره إلى زمن يعرف فيه العالم بعضه بعضا أكثر مما في أي زمن آخر.

تظل السينما جسرا للتواصل الثقافي وفضاء للتعبير عن جرأة ورؤى الشباب، مما يستوجب تعزيز الإنتاج المحلي الهادف الذي يجمع بين الفن والقيم. تعد السينما أداة تأثير قوية في تشكيل وعي الشباب وقيمهم، حيث تعمل كوسيلة ترفيهية وتثقيفية تعكس الواقع الاجتماعي، وتساهم في تشكيل الرأي العام وتغيير المواقف السلوكية. وتؤثر الأفلام بشكل عميق على الشخصية والعلاقات الاجتماعية، وتوسع الآفاق الثقافية، بينما قد تنتج سلبية عبر نشر العنف أو تبلد المشاعر .

فإذا نحن نظرنا إلى السينما من حيث موضوعاتها وجدناها تنقسم إلى قسمين كبيرين: قسم يقصد منه التسلية على اختلاف ألوانها وأشكالها. وقسم ثقافي؛ يشمل الأنباء والأخبار والموضوعات العلمية من زراعية واقتصادية، والموضوعات التاريخية لعرض الحوادث والأبطال، ولعرض الجرائم، وللعلاقات الجنسية، والكوميديا المضحكة، وباقيها أفلام حرب، وموضوعات أطفال.

فالموضوعات التي يقبل عليها الشاب اليوم يعرض عنها غدا، وعواطف الناس تختلف أيام السلم عنها أيام الحرب، وهي في البيئة الديموقراطية، غيرها في البيئة النازية أو الشيوعية أو الرأسمالية وهكذا.

ولعل الموضوع المستقر الخالد الذي لا يعتري الناس منه ملل أو ضجر في كل الأزمنة وكل الأمكنة، هو موضوع الحب، فشاب قابل شابة، وشابة قابلت شابا فكان بينهما من العلاقات ما يسمى حبا، وتكونت حول هذه العلاقة هالة من خيالات وأوهام ووصل وهجر وانتقام، فهذا هو الموضوع الخالد من عهد سيدنا **آدم** و**حواء** إلى عهد الأفلام الصامتة والناطقة، والإقبال عليه لا ينقطع، ومناظره لا تمل.

والنقطة الهامة التي نتوقعها هي أثر السينما في أخلاق الشباب، وهل نشجع السينما أو نقاومها؟

طعن بعض من رجال الأخلاق ورجال الدين في السينما والتشهير بها، وذكروا أمثلة كثيرة من شبان تعلموا الإجرام من قصص السينما الإجرامية، وشبان تعلموا المغازلة من روايات السينما الغرامية، وأن السينما كانت مدرسة سيئة لكثير من الشبان والشابات، تعلم فيها كل صنوف الشرور، فهي تثير الغرائز الكامنة، وتفجر الغرائز المكبوتة، وتعلم وسائل الشر لمن يريد الشر ولا يعرف وسائله، ونحو ذلك.

ولكن ما هكذا توزن الأمور وتقدر ويحكم عليها، إن مثل من يقول هذا كمثل مَن يقترح إلغاء السكك الحديدية؛ لأن القطارات تدوس بعض الناس، وتغلق الجرائد والمجلات؛ لأن منها ما يتهجم على الأعراض ويقذف الأبرياء، أو يقترح أن يسلب الناس حريتهم؛ لأن بعضهم مُنِحَ الحرية فأساء استعمالها، وهكذا. إنما يقوم الشيء بخيره وشره معا، ومنافعه ومضارِّه جميعا، وأي شيء في الدنيا خلا من عيب.

المقاييس الأخلاقية التي قام بها بعض علماء النفس ليست دقيقة ولا متناولة لجميع النواحي، قد يكون حقا أن الشباب الذين يذهبون إلى السينما ثلاث مرات في الأسبوع أسوأ خلقا، وأقل في الحياة جدا، ولكن هل هذا بتأثير ذهابهم إلى السينما ثلاث مرات، أو أنهم يذهبون ثلاث مرات إلى السينما لأنهم أسوأ خلقا وأميل إلى اللهو؟ فالحق أن السينما تعكس ما عند الإنسان من غرائز وميول وشذوذ واتجاهات، أكثر مما تكون خالقة لها، ومصدرا لتكوينها، بدليل أن الفيلم الواحد قد يؤثر في شاب أثرا سيئا جدا، ويؤثر في زميله الذي يجلس بجانبه أثرا صالحا جدا.

وهنا أستحضر هذا البيت الشعري لأبي **الطيب المتنبي** وهو من أشهر أبياته في الفخر وعتاب حساده، يضرب مثلا بأن المريض يجد الماء العذب مرّاً لعلة في فمه، لا لعلة في الماء. يقصد أن منتقدي شعره يجدون فيه عيبا لضعف إدراكهم وتذوقهم، وليس لنقص في شعره، فالعيب في "ذوقهم المريض" لا في إبداعه. حيث قال:

ومن يكُ ذا فمٍ مُرٍّ مريض يجد مُرًّا به الماء الزلالا

وأستحضر كذلك المثل العربي الشهير الذي يضرب للدلالة على أن كل إنسان مشغول بهمه الخاص، ويتحسر على غايته أو حبيبته "ليلاه"، ولا يكترث بمشاكل الآخرين. يعود أصل المثل لقصة **قيس بن الملوح (مجنون ليلى)** الذي هام عشقا بابنة عمه **ليلى العامرية**، فانتشرت أشعاره، ليصبح كل شاعر يتغنى بحبيبته تحت اسم **ليلى**. إليكم القولة المشهورة:

والمغني يغني وكل يبكي على ليلاه.

ولسنا ننكر مع هذا ما للسينما من أثر صالح أو فاسد، فكم رسمت للشبان مثَلَهم الأعلى في الطموح إلى حياة البذخ والترف والنعيم، ورسمت لآخرين حياة الجد والنجاح في العمل، وللمستعدين للإجرام مغامرات المجرمين! وكم رسمت للفتاة صورة جميلة لحياة زوجية سعيدة، وخففت عن نفسها ألم العزلة والفراغ، أو صورت لها أن تكون يوما من الأيام بطلة لقصة غرام! وهكذا، ولكن مثل السينما في ذلك مثل الجرائد والمجلات، تقول الحق والباطل وتوجه التوجيه الصالح والفاسد، ومثل الإذاعة تقص القصة الدافئة والنافعة والضارة، وتذيع الأغاني الحلوة والمرّة.

بات من الضروري مراقبة السينما؛ فقد تصلح أفلام لسن دون سن، وقد تصلح في ظروف دون أخرى، وقد تدعو إلى التهكم، وقد تدعو إلى هدم ما هو عزيز على المجتمع.

فاليقظة تعادل موضوعات الأفلام، فلا تكون كلها غراما بحتا أو غراما وإجراما، بل لا بد أن تغذى بمقدار معقول من الثقافة؛ وبعض البلدان الراقية اشترطت على كل دار من دور السينما أن تعرض في كل مرة فيلما ثقافيا يستغرق عشر دقائق على الأقل. **إننا نراقبها كما نراقب الفاكهة تأتي من الخارج؛ فقد تكون متعفنة أو ملوثة، ونراقبها كما نراقب النقود في الداخل فقد تكون مزيفة.**

كلما كانت المحاولة من خلال الاقتراب من مباعث وخلفيات ورافعات جودة الفيلم المغربي، كلما كانت سبل الإسهام في خلق حكي سينمائي مغربي جذاب، لا تقف في الدبلوماسية الموازية؛ بل يتعداها وأساسا إلى التربية والتنشئة والتوجيه والتخصيب والإغناء للشباب المغربي الطموح، عندما يتعلق الأمر بتأثيره على المشهد المغربي.

فما المانع مثلا من الاقتراب إلى أفلام الشباب روائيا أو وثائقيا، والكتابة عنهما من زاوية نقدية تحليلية، بل ولم لا ننبش فيما توقعه هذه الأيادي الهاوية العاشقة لثقافة الصورة، والآتية إليها من فضاءات المؤسسات التعليمية والجامعة أو من فضاءات غير جامعية، أو دور الشباب، لكنها مُكتوية بحب الصورة، ومن هنا الارتماء في أحضان الإخراج، بحثا عن قدم في هذا المجال، رغم قلة وضعف الإمكانيات؟ لكن الأهم هنا في اعتقادي المتواضع، هو طرح الأسئلة المفضية للاهتمام بهذه الفئة التي تبدع في صمت، وخصوصا في مجال الصورة والصوت.

تبقى المقاربة الثقافة والفنية –لا سيما من خلال وسيط الصورة– أن تكون فعالة ونوعية، بل ومحولة لهذا العنف الذي يعيشه الشباب المغاربة من هذا المستوى المؤلم إلى مستوى آخر منتج للمعرفة والثقافة والجمال. فمستقبل السينما المغربية يتأسس على الاستثمار في قطاعي التكوين والتوزيع للشباب لتحقيق الطفرة النوعية المنشودة للسينما المغربية. فالإطار المؤسساتي الوصي على قطاع الفن السابع مدعو إلى إنعاش الاستثمار في تكوين الموارد البشرية المؤهلة لإسناد صناعة الفيلم بتخصصاتها التقنية والفنية المختلفة من جهة، وتعزيز بنية الاستقبال الخاصة بتوزيع الفيلم المغربي في القاعات السينمائية، بما يقوي القاعدة الاقتصادية والجماهيرية للسينما الوطنية.

المبحث الثاني: صورة الشباب في السينما المغربية

من اليسير جدا أن نعثر على مواهب عديدة في مجالي الغناء والرياضة، على اعتبار أن هذين المجالين هما اليوم مركز اهتمام العديد من المكونات المجتمعية وخصوصا الإعلامية والسياسية، ناهيك عن كونهما يدران عائدات مالية خيالية، لا سيما حين يصبح ذلك اللاعب الهاوي لاعبا محترفا، والمغني الهاوي محترفا كذلك. في حين أن تتبع المواهب الثقافية؛ نادرا ما يلتفت إليها، مما يجعلنا نعيش العديد من التعثرات المعرقلة لنهضة ثقافية حقيقية يمكن اعتبارها هي المدخل الحقيقي لكل نهضة فعلية راغبة في التقدم.

من خلال تجارب سينما الشباب التي أعدتها أيدي الشباب الهاوي أو المحترف، يظهر لما جليا أنها راغبة في حكي قصص إنساني آت من محيطها الذي تعيش فيه، فكل هذه التجارب تمكنت من أن تجيب عن سؤال الصنعة السينمائية؛

-ماذا سيحكي؟

-لمن سيحكي؟

-لماذا سيحكي؟

-كيف سيحكي؟

يطرح هذا المبحث بعض التساؤلات والإجابات التي يمكن أن تكون منطلقا لطرح بعض القضايا ذات الصلة بتيمة سينما الشباب، والتي تعتبر سواء في بعدها الوطني، عبارة عن محاولة تركيبية لتعميق صورة الشباب في السينما المغربية.

-هناك من يصنف السينما المغربية إلى قسمين:

1- سينما القنوات التلفزية الوطنية.

2- سينما تعرض في القاعات السينمائية.

-كيف ذلك؟

– يعرض التلفزيون أفلاما سينمائية نظيفة دون عنف أو مشاهد جنسية. بينما تعرض القاعات أفلاما يعتبرها التلفزيون غير ملائمة لذوق جمهوره. الجديد فمنذ سنة 2017 م. هذا التقسيم صار يشمل القاعات السينمائية أيضا. فهي تعرض أفلاما كوميدية دون عنف او مشاهد جنس، وتجلب شبابا كبيرا. كمثال على ذلك: فيلم "الحاجات" لمخرجه **محمد أشاوور**، وفيلم "المليار" لمخرجه **لرائد المفتاحي**، ففيلم "كورصة" لمخرجه **عبد الله فركوس**، **ثم** فيلم "لحنش" **لمخرجه إدريس المريني** ...

حققت هذه الأفلام أرقاما وستعرض لاحقا في التلفزيون. والسبب في ذلك أن المخرجين رفعوا تحدي إرجاع الشباب للقاعات. **فحصان طروادة هو الكوميديا**. "سينما السوق" ضرورية لخلق رواج تجاري، وتسلية الشعب، كفيلم " سوق النسا"، من إخراج **فاطمة بوبكدي** والذي صدر سنة 2005م. ثم سينما "المؤلف" أفلام (ألفريد هيتشكوك) Alfred Hitchcock و (هوارد هوكس) Howard Hawks. من أبرز هذا اللون فيلم " الأيام الأيام" لمخرجه **أحمد المعنوني** الذي أنتج سنة 1978م، والتي باتت ضرورية للمشاركة في المهرجانات، كمهرجان "المؤلف" بالرباط.

–هل هناك تكامل أم تناقض بين الصنفين؟

–في سبعينيات وثمانينيات القرن الماضي كانت علاقة الشاب المغربي بالسينما المغربية مميزة، وكان يتفاعل كثيرا بما يشاهده من أفلام مرتبطة بواقعه؛ مثلا على ذلك: فيلم " حلاق درب الفقراء" لمخرجه **محمد الركاب** والذي أنتج سنة 1982م. اليوم نرى أن تلك العلاقة فترت، إن لم نقل انعدمت، وأصبح الاهتمام مقصورا على النقاد والمثقفين وأهل الفن عموما.

– ما الذي تغير؟

– وقع انهيار من أربعين مليون تذكرة مباعة في عام 1980م إلى أقل مليوني تذكرة في 2017.

– ترى ما السبب؟

– في ثلاثة عقود تغير نمط الفرجة السائد للشباب، وظهرت آلاف القنوات وملايين الهواتف للمشاهدة الفردية. لم ينخفض الطلب على فن يسمح للشباب برؤية نفسه في الشاشة. بالعكس زاد الطلب، وبما أن منصات المشاهدة تعددت فقد قل زوار القاعات السينمائية.

ملاحظة مهمة: حين يقدم المخرجون فيلما قويا يروج له جيدا عبر (الميديا) Médias يحج المتلقي للقاعات السينمائية بطبيعة الحال إن وجدت، وحتى إن وجدت فهي بالمركز. كالفيلم الكوميدي " الإخوان" للمخرج **محمد أمين** والذي أنتج سنة 2022م. تجاوزت إيراداته 16 مليون درهم وحصد أكثر من 300 ألف مشاهدة.

– ماذا عن مستقبل السينما المغربية؟

– سؤال حرج شيئا ما فهي **ترتدي جلباب مطبّة التكرار**، وعدم الإخلاص لقيم الفن، وانعدام الأفق. فمستقبلها يكاد يكون مظلما وضبابيا، وعدم انبثاق هويتها يشكل حلقة فقد عظيم لآليات سيرورتها وتواجدها في قلب التحولات الصناعية والفنية الكبرى التي شهدتها الساحة الثقافية. سيكون مستقبل السينما المغربية أفضل. فهي الآن قدمت أكثر من 340 فيلم. وخطوط التمويل متوفرة. أنتج المغرب 23 فيلم طويل و96 قصير في سنة 2017 م وينتظر أن يفرز الكمّ الكيف. والدولة المغربية مقتنعة بأهمية الفن لتقديم صورة مغربية الفن السابع للمتلقي. هذا رهان مستقبلي. حاليا تترجم القنوات المغربية المسلسلات التركية بالعامية المغربية لكي لا يشاهد المتفرج المغربي قنوات شرقية. وكل بلد يهمل هذا البعد المحلي والوطني للإنتاج السمعي البصري سيترك فراغا يملأه الغير، وتلكم هي الطامة الكبرى.

– في الوقت الذي يستضيف المغرب مهرجانات سينمائية عالمية نستشعر أن هناك أزمة السينما المغربية، وفجوة بينها وبين الشباب، ما سبب هذه المفارقة؟

–جواب: السبب واضح ويعود إلى قلة الإبداع. فعادة يشتكي المتلقي الشاب المغربي من ضعف القصة لأنه لا يجد لها مغزى. والدليل على صحة ذلك أنه في كل مرة يضجر فيها، ويستشهد بالأفلام الإيرانية التي تسرد بحرفية متماسكة وعميقة، تجعل من الإخراج أجمل وممتع للغاية، يشد هذا المتلقي الشاب من تلابيب أعينه.

– ما هي مؤاخذات الشباب عن الفيلم المغربي؟

بالإضافة إلى ضعف تشويق القصة وجاذبيتها هناك نقط ضعف كثيرة في الفيلم المغربي منها:

–أولا: مشهد الممثل في الزنزانة من باب اقتصاد تكاليف الإنتاج، للتخلص من ضجيج الحياة اليومية وقوانين الإضاءة، وصعوبات تحريك الكاميرا. يختار المخرج غرفة بلا نوافذ ويحشر ممثليه في زاوية، يضع الكاميرا أمامهم ويبدأ في تصويرهم... هذا ليس سجنا، إنه ضريح أو منزل أو مقهى مفبرك. كفيلم "الغرفة السوداء" للمخرج **لحسن بنجلون** والذي أنتج سنة 2004م، ثم فيلم " دموع إبليس" للمخرج **هشام الجباري** الذي أنتج سنة 2015م.

–ثانيا: كثرة الأحلام والتخيلات، مثلا تقترب الكاميرا من وجه ممثل نائم في لقطة كبيرة ثم تدخل في الإطار؛ أحداث كثيفة وضجيج، فجرح فموت فصرخة فاستيقاظ، وخوف الشخصية تحلم. كفيلم "أتومان" للمخرج المغربي البلجيكي **أنور معتصم، والذي** أنتج سنة 2025م.

–ثالثا: المبالغة المفرطة في (الفلاش باك) Flashback، أو الاسترجاع الفني. كفيلم "عايدة" للمخرج **إدريس المريني**، والذي تم إنتاجه سنة 2015م.

–رابعا: كثرة مشاهد الحمقى والمجاذيب والمجانين والمتسولين والمرضى؛ مشاهد تجري حول أضرحة الصلحاء والزوايا. أو تجري في المدن ويظهر فيها مجانين يقولون الحقيقة. إنه عالم الجنون والسرية واللا عقل. كفيلم " فيها الملح والسكر أو مبغاتش تموت" من إخراج **حكيم نوري**، وإنتاج سنة 1999م.

– ما سبب اللجوء إلى هذه المشاهد؟

– كل ما يعجز المخرج عن تفسيره يدفع به إلى عالم اللا منطق ليعفي نفسه عبء التفسير. وقد يزعم أنه متجدد وحداثي ومستقل، ملفق أن ذلك عبارة عن عودة إلى النبع للتزود بطاقة روحية. الحداثة هي قطع حبل السرة للتوجه للمستقبل.

– هل نسميه فقر في التصوير؟

في كل هذه الحالات يتم الاحتيال على قانون التعاقب الزمني بالحلم والتذكر، ويتم الاحتيال على حيوية الفضاء الاجتماعي، باختيار أماكن تصوير مغلقة لا تنبض بالحياة.

– هل أصبح الواقع الفني في المغرب عاجزا عن تكوين مخرجين شباب بارزين وإنتاج سينما ناجحة؟

– هناك جيل من المخرجين المغاربة الشباب الجدد اختار العمل خارج البلاد. ولم يتعرف عليهم المتلقي المغربي إلا بعد تتويجهم بجوائز دولية؛ مثل: المخرج **نبيل عيوش**، و**نور الدين الخماري**، و**حسن الكزولي**، **ورشيد بوتونس**، لإعطاء نفس جديد للسينما المغربية. بالطبع هذه الشريحة لها نظرة تقنية وموضوعاتية مختلفة، وقدمت أعمال متفاوتة القيمة الفنية، وهو أمر طبيعي.

في المغرب إن لم يعترف بك الخارج فنيا لن يعترف بك الداخل. لذلك من الجيد أن يبدأ فيلمك رحلته من مهرجان أجنبي. حتى لو كان فيلمك قويا وليس فيها خروج عن الطابوهات لاستفزاز وسائل الإعلام، لن يحصل على الاعتراف. وهذا الاعتراف سيجلب لك إمكانيات وتمويل للتصوير. المخرجون الشباب الذين يأتون من الخارج يحصلون على فرصة أفضل.

– هل إنتاج الصورة لم يعد شيئا كماليا للشباب، وأن السينما لا يجب أن تكون آخر هم بعد الفراغ من العمل على قطاعات أخرى؟

– ما يؤرق الشباب أكثر هو سيادة فكرة التعامل مع السينما كأنها شيء ثانوي، والاستهتار بعملية إنتاج الصورة، التي يعد إنتاجها شيئا كماليا، وأن السينما لا يجب أن تكون آخر هم بعد الفراغ من العمل على قطاعات أخرى. لا بالعكس، فالسينما يمكن أن تلعب بشكل ناجع دور القاطرة التي تجر ركب البلدان نحو النجاح في مجالات تنموية ثقافية، اجتماعية واقتصادية وسياسية وتثقيفية وتربوية و...

عندما نعي قوة هذه الصورة، وسهولة بلوغها وانتشارها في عالم اليوم، في دقائق معدودة ممكن أن تقدم المغرب لمشاهد في الصين أو كندا، أو... هنا سيلزمنا الاشتغال أكثر على جودتها، واحترام معايير هذه الجودة في احترامنا للمتلقي.

–ماذا عن الجيل الجديد من السينمائيين الشباب؟

–هذا الجيل الجديد جعل من العمل السينمائي سوقا للتبخيس والرداءة وتغليف المبادئ. فالوضعية محرجة جدا وتدعو إلى تحقيق الحد الأدنى من الجودة، وتصحيح مسار القضية السينمائية برمتها، نصا وصورة ورؤية وتوزيعا، من أجل التساوق الأخلاقي والترجمة الآمنة لمتطلبات المجتمع ورهاناته الوطنية والإبداعية.

– الشباب صناع السينما المغربية كلّهم يطمحون الوصول إلى العالمية، ونقل السينما المغربية إلى العالمية أليس كذلك؟

– بالفعل إنه الحلم الذي يراود عددا من المبدعين خاصة الشباب، غير أنهم وحسب الإمكانات المتاحة تجد طموحهم مكبلا في توفير شروط إنجاح أعمالهم ولو ضمن الحد الأدنى، عبر الخروج من شرنقة اختلال العلاقة بين الإنتاج والتوزيع على الصعيد المحلي، وهو اختلال يعود في شقه الأول إلى غياب القاعات السينمائية في جلّ جهات ومدن المملكة.

إذ أن التجمعات السكنية أو المدن الجديدة تبدو بدون فضاءات ثقافية، أو مراكز صالة لعرض الأفلام. هذا هو الرهان الذي من المفترض علينا خوضه، وانطلاقا من إنجاح معادلة نقل السينما المغربية إلى العالمية. وهذه مسألة أثبتتها بالملموس عديد من الدول، والتي كانت بالأمس القريب تشاركنا نفس المراتب المتواضعة، نشاهدها اليوم وقد اخترقت المشهد السينمائي العالمي بقوة وجدارة، حتى تلك التي لا تدعم حكوماتها هذا القطاع على عكس الحال عندنا.

– ماذا يتطلب نتاج فيلم مغربي في ظل واقع تراجع قاعات العرض؟

– وفي ظل واقع حال كهذا، فالسينما كباقي الأنشطة الثقافية هي من حيث طبيعتها تتعرض لمخاطر إنتاج مرتفعة، قياسا إلى المنتوجات الأخرى، فإنتاج فيلم على سبيل المثال يتطلب رصد مبالغ مالية طائلة لإنتاجه قبل أن يعرف أصحابه هل سيلقى الإقبال المطلوب والكافي أم لا، على أن المتلقي الشاب إذا لم يتجاوب معه في الأسبوع الأول فإن صاحب القاعة يجد نفسه مضطرا لسحبه من البرمجة. وقبل هذا وذاك، يواجه المخرجون صعوبة في تنفيذ أفلامهم الحاصلة على الدعم، حين يتوقف هذا الأخير عند الدفعة الثانية، ويكون مجبرا على انتظار التوصل بالدفعة الثالثة بعد تسليم الفيلم.

– ما الطابع الذي يغلب على شركات الإنتاج المغربية التي يديرها شباب؟

– طابع المقاولة المتوسطة أو الصغيرة، و90 في المائة منها يعتمد على وسائله الخاصة، كما أن أغلبها لا يشتغل على مدار العام، نظرا للسقف المحدود لميزانية الدعم السنوي المخصصة من طرف الدولة للأفلام السينمائية، فضلا عن احتكار شركات بعينها لتنفيذ الإنتاج التلفزي، وهو ما يجعل العديد من المقاولات مهددة بالإفلاس. فعوض التفكير على مستوى التشريع التنظيمي الجديد في رفع سقف العقوبات بشكل صارخ في وجه شركات الإنتاج، كان من الأجدر استحضار معطى شبح الإفلاس الذي يتربص بعدد كبير منها، والتي تجد نفسها أمام عسر تأدية ديون البنوك، وأداء واجبات كراء مقراتها، ومتطلبات التدبير الإداري، فضلا عن الأجور ومستحقات الضمان الاجتماعي، والضرائب و...

– هل وصلنا إلى استقلالية لجنة الدعم؟

– يكفي الإشارة في هذا الباب إلى "جمعية اللقاءات المتوسطية للسينما" و"حقوق الإنسان" حين طالبت (المركز السينمائي المغربي) Centre cinématographique marocain مدّها بمجموعة من الوثائق في إطار اشتغالها على موضوع السياسة العمومية في مجال السينما، والتي توصلت بها فعلا، باستثناء محاضر "لجان الدعم السينمائي"، وهذا فيه شيء من إنّ.

ما يتم التداول فيه داخل أسوار الوزارة الوصية، سواء عبر الإعلام أو في الكواليس من قصص وأخبار، يثير السؤال حول مدى استقلالية "لجنة الدعم"، فلا دخان بلا نار، وما محطات المهرجانات الوطنية للفيلم إلا مرآة عاكسة لواقع حال سينما مغربية تحمل بصمة "لجان الدعم"، قبل بصمة المخرج، أو شركة الإنتاج، حتى وإن كنا لا نحتكم **لشباك التذاكر**.

– ماذا عن ترويج الفيلم المغربي؟

– وجد له الوزارة الوصية حلا سحريا يقضي باقتناء الوزارة لمجموعة من الأعمال الوطنية وعرضها في المركبات الثقافية ودور الشباب الفارغة، ولهذا الغرض قامت بإجراء صفقة من أجل اقتناء معدات العرض، ليتبدى فيما بعد أنها كانت فاسدة، وبذلك تتبخر فكرة المشروع.

– لماذا لا نرى قسيمات تذاكر سينمائية في هذا المشروع؟

– كان الممكن أن تهتدي الوزارة إلى صيغ أخرى كالبحث عن محتضنين يوفرون قسيمات تذاكر سينمائية، توزع في وسائل النقل العمومي والمتاجر الكبرى والمدارس لتشجيع الشباب لولوج القاعات السينمائية، لمشاهدة ما جدّ من إنتاجات سينمائية وطنية، سيما وأن الشباب يقبل بشدة على جديد السينما العالمية، سواء المعروض منها في القاعات أو التي تبث على القنوات التلفازية المتخصصة في السينما وعلى منصات (الأنترنيت) Internet، هذا فضلا عن تفشي القرصنة، عوامل تزيد من حجم وشدة التنافسية، وبالتالي فالرهان على أفلام مغربية قديمة هو رهان لا يأخذ بعين الاعتبار انتظارات المتلقي المغربي.

– كيف يمكن الرهان على استقطاب الشباب للمؤسسات الثقافية التابعة لوزارة الثقافة، وبدور الشباب الخاضعة لوزارة الشباب والرياضة؟

– يتم ذلك بحضور بتحديث؛ البنيات الثقافية في أماكن العيش، وبالأخص صالات العرض، وباقي البنيات من مركبات ومكتبات وسائطية وخزانات، وهي على العموم لا تستند إلى مؤسسات تكوين واحتضان وبرمجة، لضعف الموارد المالية، وكذا الكفاءة البشرية الساهرة على تنشيط مثل هذه المؤسسات العمومية.، ويكفي المقارنة بين برامج وأنشطة مراكز البعثات الثقافية الأجنبية وواقع حال برامج المركبات الثقافية التابعة لوزارة الثقافة، فما بالكم بدور الشباب الخاضعة لوزارة الشباب والرياضة؟

– كيف يمكن الحد من الاختلال الحاصل بين الإنتاج والتوزيع في ارتباطه بمخاطر الإنتاج الذي يديره الشباب؟

– ذلك بالحد من الاختلال الحاصل بين الإنتاج والتوزيع في ارتباطه بمخاطر الإنتاج، والمساهمة في معالجته تبعا لمبادرات الشباب، لكن شريطة تصحيح الوضع القائم للبنيات الثقافية التابعة للوزارة الوصية، وإعادة تأهيل مواردها البشرية الشابة، وفوق هذا وذلك إدراج السينما والثقافة على العموم ضمن الأوليات الوطنية في السياسة الحكومية، وهو العنصر الغائب بدليل الميزانيات الضعيفة المخصصة للوزارة، إضافة إلى غياب التنسيق في هذا الشأن بين السلطات الحكومية المركزية والمؤسسات المنتخبة جهويا ومحليا، أمر كهذا مرتبط بإرادة سياسية أكثر منها تشريعية، لكون القانون يأتي لوضع الإجراءات التنظيمية والمراسيم كآليات لترجمة فعل القرار السياسي.

– ألم تتخذ السياسة الحكومية المغربية إجراءات كفيلة في هذا المجال؟

– من أولويات القرار السياسي الحكومي التشريعي في هذا المجال، هو جعل الجهات والجماعات المحلية تنخرط في تقديم دعم تكميلي للأفلام الوطنية، وفق دفتر تحملات واضح على شاكلة نماذج الجهات الترابية الفرنسية، التي تؤمن على غرار العديد من البلدان الأوروبية بمفهوم الاستثناء الثقافي، أي عدم جعل الثقافة والسينما على الخصوص محكومة فقط بنظام السوق القائم على العرض والطلب، لكونها تدرك أن السينما تنتج المعنى والقيم، كما تعد إحدى الركائز الأساسية التي يمكن أن تؤثر بشكل إيجابي على الدخل القومي وتعمل على تحقيق الهوية الثقافية. وهي أيضا مفتاح دعم الفنون والإبداع، وتحويل الثقافة إلى منتج قابل للربح، عن طريق توفير فرص عمل للشباب، واحتكاك المواهب المحلية مع الخبرات الوطنية والأجنبية. فالسينما هي تعبير عن تاريخ، ولغة، وحتى الحيز الجغرافي الخاص بالبيئة التي احتضنت العمل.

– لماذا المركزية مازالت طاغية في تصوير بعض الأفلام الشيء الذي يقصي شباب مناطق الهامش؟

– لعل الرغبة في تلافي ارتفاع كلفة الإنتاج، هي ما يجعل العديد من شركات الإنتاج التي يديرها الشباب تقتصر في تصوير أفلامها على بعض المدن الكبرى؛ كالدار البيضاء والرباط، لكون أغلب الأطقم التقنية والفنية تتواجد في عين المكان، ولا تحتاج إلى إقامة وتغذية بالفندق وتنقل.

– ما قول الشباب في لجنة الفيلم؟

– عوض تعزيز مكانتها وأدوارها، يحذف القائمون على وضع النص الجديد الفصل المتعلق بها، مع أنها يمكن أن تلعب دورا محوريا في التنسيق مع الجهات المنتخبة، كتوفير منصة إلكترونية لمواقع التصوير، تبرز ميزة تضاريسها الجغرافية ومواقعها الأثرية، ودرجة الحرارة الضوئية والسمات المميزة لها، وخريطة الفنادق ونوعيتها، إضافة إلى المطاعم وشبكة النقل الطرقي والسككي والجوي، فضلا عن نوعية اليد العاملة الشابة الحرفية الممكن الاستعانة بها في مختلف أنواع الديكور والإكسسوارات، وكل ما يتعلق بالصناعة التقليدية، فضلا عن الموارد البشرية التقنية المؤهلة، والتي يمكن لشركات الإنتاج الاستفادة منها في حدود كأطر معينة، هذا إلى جانب إبراز المواهب المتوفرة على صعيد المنطقة من ممثلين في مجال المسرح أو السينما.

كما يمكن أن تلعب إضافة إلى أدوارها التقليدية المنوطة بها، دور الحكامة على مستوى المشاكل الممكن أن تعترض عمليات التصوير والإنتاج، كتهرب بعض الشركات من تأدية أجور (الكومبارس) Figurant ، أو عدم احترام تعهداتها تجاه المومنين، وذلك بتنسيق مع (المركز السينمائي المغربي). ناهيك عن تسهيل عملية التواصل المتعلقة ببعض الجوانب الإدارية بين شركات الإنتاج، والمركز السينمائي التي قد يتطلبها الأمر على مستوى الميدان.

– هل تعزيز الجاذبية السينمائية الثقافية، والسياحية والاقتصادية، هي مهمة أيضا موكلة للمهرجانات؟

– بكل صراحة تصنيفها وتأهيلها، يخرجها هي الأخرى من شرنقة التظاهرة الموسمية، بدون أثر يذكر بالنسبة لبعضها، التي ترفع مقولة: (كبر بيا – نكبر بك)، حيث نجد نفس الوجوه في كل دورة، في حين لا أثر يذكر للسينما وللمتلقي، أولا لكونها لا تتوفر على رؤية وأهداف أو على معرفة بانتظارات الشباب، وما يتعين القيام به على مدار السنة؛ من ورشات تكوينية إلى جانب الفرجة السينمائية لفائدة الأطفال والشباب، وتحليل الأفلام والتعريف بتاريخ السينما واللغة السينمائية، وتحفيز المواهب على الخلق والإبداع وتأطيرهم في مجال كتابة السيناريو، وقراءة أعمال روائية تمس دواخلهم، لا سيما تلك التي عرفت نجاحا بعد تحولها إلى الشاشة الكبرى.

– ما فائدة تظاهرات ومهرجانات سينمائية شارك فيها الشباب، وها هي قد قاربت ما يقل أو يفوق عن 80 تظاهرة ومهرجانا؟

– تظاهرات ومهرجانات سينمائية لا تربي الشباب والناشئة على حب السينما، فضلا عن استقطاب الفئات المتوسطة، وبالتالي كيف يصر واضعوا القانون التشريعي لقطاع السينما على عدم تصنيفها وتقييدها بدفتر تحملات، فهناك مهرجانات ظل يصر بعض القائمين عليها على استمرارها بكل الوسائل، وتعمل على إدماج التنمية في المجال الترابي، وكرست بالكد والعمل اسم المهرجان محليا ودوليا، كمهرجان تطوان ومهرجان خريبكة. في حين لازلت أخرى تراوح مكانها، لضعف التكوين على مستوى اللوجستيك والتنظيم، وانعدام الحكامة وشخصنة بعضها، بل أكثر من ذلك، صارت مرتبطة؛ بعائلة رئيس ومدير المهرجان، وهو ما يؤدي إلى إضعافها.

– قد يتهم بعض المتتبعين للسينما المغربية أنها تعمل جاهدة على إنتاج أفلام "الخطوط الحمراء":

– هذا مجرد قوس، يودون من خلاله أن ننقر في ذهن الساهرين على أخلاق المجتمع بأن السينما المغربية لا تشتغل في إنتاج أفلام "الميوعة"، فصناع السينما الوطنية لهم من الطرق الكفيلة إن أرادوا التعبير عن قضايا شائكة في المجتمع المغربي، انطلاقا مما تمنحه اللغة السينمائية من سبل للإيحاء بطريقة غير مباشرة لبعض الطابوهات، احتراما لذوق المتلقي تبعا للرسالة المراد توجيهها، أما حماية الناشئة فله ضوابطه في كل بلاد المعمور.

– كيف يرى الشباب المهتم بالحقل السينمائي واقع الصناعة السينمائية في المغرب؟

– لم تبذل الوزارة المعنية جهدا في تشخيص واقع الصناعة السينمائية في المغرب، حيث اكتفت بما سبق إنجازه، وتحيين معطياته، من أجل بلورة نص متوازن يراعي مسالة الحق والواجب. فما المتعارف عليه في بعض القطاعات الحكومية، أنه حين يعتلي وزير كرسي الوزارة، يحاول الانطلاق من الصفر، متجاهلا التراكمات السابقة والمكاسب المنجزة، أو يكتفي بتصريف الوارد والمنصرف على **غرار بقال الحي**، وحتى لا نتهم بإطلاق الكلام على عواهنه، أين المشروع من توصيات **الكتاب الأبيض**، فضلا عن **تقارير المجلس الاقتصادي والاجتماعي والبيئي**، من قبيل اقتصاديات الثقافة 2016. فضلا عن دليل **السياسات الثقافية في المغرب** (2022 – 2024)، والتقرير المنجز حول **موقع الشباب في السياسات الثقافية للمغرب** المنجزين من طرف مؤسسة (فريدريش إيبرت) Friedrich Ebert، التي تم تنفيذها من طرف "المركز المغربي للشباب والتحولات الديمقراطية"، هذا دون أن ننسى تقرير "جمعية اللقاءات المتوسطية للسينما" و"حقوق الإنسان" حول موضوع "السياسة العمومية في مجال السينما وارتباطها بالتزامات المغرب في مجال حقوق الإنسان". وفيما يتعلق بالصلة القوية بين التشريع المصاغ والقوانين النافذة في الدولة، نحيل هنا إلى لقانون 03 – 77 المتعلق بالسمعي البصري.

ختاما:

إن ولوج الشباب سوق الفيلم المغربي يعيش اختلالات بين سبل الإنتاج وطرق التوزيع، هذا الاختلال يطرح إشكاليات مركبة ومعقدة، متشكلة في عدة عناصر نجملها في؛ تراجع عدد قاعات العرض، وتفاوت حجمها وتوزيعها، وغياب عدالة مجالية على مستوى هذا التوزيع إلى انعدامها كليا في الكثير من مدن الهامش، لينضاف إليها المنافسة الشرسة مع الأفلام الأجنبية على الخصوص، وما يترتب عن ذلك من مخاطر الإنتاج، والتي يمكن الحد منها على الأقل بسن الشفافية المطلقة، واستقلالية لجان الدعم في اختيار أجود نصوص السيناريو المعروضة عليها. فالأعمال السينمائية التي تؤشر عليها لجان الدعم لا تخضع للمحاسبة البعدية بعد تصوير الأفلام ونزولها إلى القاعات السينمائية، فأحرى المحاسبة القبلية.

لقد بات من الضروري التفكير في حسن الصياغة التشريعية التي هو جزء من مكونات الإرادة الرشيدة، لما لها من آثار بالغة على الشباب في كل ظروفه أو مستوياته السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وبرامج الدولة الاستراتيجية، وأشكال التنسيق بين برامجها على المستوى المركزي والجهوي. وبالتالي فالحكامة الرشيدة، تنطلق من قراءة الواقع وتراكم التجارب السابقة والمقارنة مع بلدان أخرى، فضلا عن الانصات الجيد إلى للشباب في القطاعات المستهدفة بتحديث التشريعات المنظمة لها، وإشراكها في صياغة قوانين منطقية حتى لا تفتح مجالا للتأويلات، وتجد قبولا لدى الأشخاص الساهرين عليها.

سينما الشباب تنتشر عادة خارج سياق قاعات العرض، وتنتعش أكثر عبر وسائل ووسائط التواصل الاجتماعي. فإذا كانت أفلام بعض صناع السينما المغربية في مراحل شبابهم تختلف عن مثيلاتها فيما بعد، فإن الأمر يطرح أكثر من تساؤل حول الصورة التي يمكن أن يحملها كل تعبير سينمائي حول رؤية الشباب للذات والآخر والعالَم.